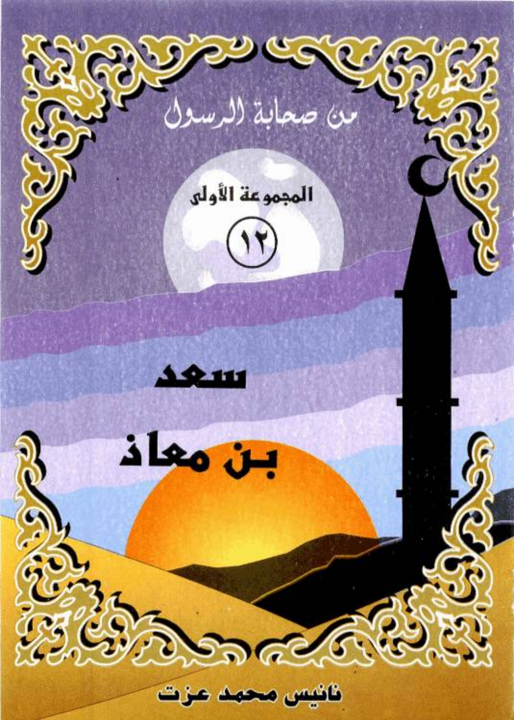

من صحابة الرسول
المجموعة الأولى
١٢
سعد
بن معاذ
ثانيس محمد عزت

من صحابة الرسول

المجموعة الأولى ١٢

سعد بن معاذ

بقلم

نانيس محمد عزت

الناشر
مكتبة مصر
سعيد جودة السحار وشركاه
٣ شارع كامل صدقي - الفجالة
ت: ٥٩٠٨٩٢٠

سعد بن معاذ

دُقَّ جرسُ الشُّقَّة ، فجرَى أحمدُ ليَفتحَ البابَ وصاح: إنَّه العمُّ عبدُه يا أُمّى ، وقد أحضرَ الخُضَرَ والفاكِهَةَ من السّوق .

ونظرَ أحمدُ إلى ما فى السَّلَّةِ الّتى أحضرَها العَمُّ عبدُه ، فغَضِبَ وقال :

ـ ما هذا يا عَمُّ عبده ، كيفَ تُحضِر لنا مَوْزًا من إنْتاجِ المَزارِعِ اليَهودِيَّة ؟

تعجَّب العَمُّ عبده وقال : أىُّ مزارِعَ يَهودِيَّةٍ يا بُنَيّ ؟ كفَى اللّهُ الشَّرّ ، لقد أحضَرْتُه من العَمِّ سُلَيمانَ الفكهانِيِّ بأوَّلِ الشّارِع .

قالَ أحمد : ولكنَّ مَصدَرَه يَهودِىّ .

وبعدَ تَناوُلِ العَشاء ، قدَّمت أُمُّ أحمدَ الفاكِهَة ، فقالَ أحمد :

ـ أنا لن آكُلَ من هَذا المَوْز .

سأَلَ أَبوه : ولِماذا يـا أَحمَـد ؟ فـأنتَ تُحِـبُّ أكـلَ المَوْز؟

قالَ أحمد : ألا ترَى يا أَبى المَكتوبَ على العَلامَة ؟ إنَّ هذا المَوْزَ يَهودِيُّ المَصدَر . وقد قالَ لنا المُدَرِّسُ ألاّ نُحالِفَ اليَهود ، ولا نأمنَ لهم ، فالغَدْرُ من طِباعِهم .

قالَ أبـوه : صدَقْـتَ يـا أحمـد ، فقَـدْ دأبَ اليَهـودُ دائِمًـا علـى مُضايَقـةِ المُسلِمينَ والغَـدرِ بهـم . وإنَّ مَواقِفَهُم الغادِرَةَ لا حَصْرَ لهـا ، ومِنها عِندمـا ذَهـبَ النَّبيُّ صلّى اللّهُ عَليـهِ وسَلَّمَ إلَى الطّائِف ، يَلتَمِـسُ النّصرَ من ثَقيفٍ بعدَ أن كذَّبَتـهُ قُرَيْشُ وآذَتـه ، فلـم تَكُن حالُ ثَقيفٍ بأفضَلَ من حالِ قُرَيْش ، فقد كذَّبوهُ وسَفَّهوهُ وآذَوْه ، وأمَروا عَبيدَهم وأولادَهُم أن يُلقوا عَليهِ الحِجارَةَ حتّى شَجّوا رأسَه ، وأصـابوهُ إصابـاتٍ شَديدَة .

قـالتْ أُمُّـه : صَدقْـتَ واللّـهِ يـا أحمـد ، فقـد طُبِـعَ

اليَهودُ علَى الشَّرّ ، وقد قالَ النَّبِـيُّ صلَّـى اللّـهُ عَليـهِ وسَلَّم : ما اجْتَمعَ مُسلِمٌ ويَهودِيٌّ في مَكان، إلاّ وهَمَّ اليَهودِيُّ بقَتلِ المُسلِم .

وأكْملَ أبـوه : نعـم ، وقَـد وصـلَ بهـم الغَـدْرُ أن هَمّوا بقَتلِ النَّبيّ ، صلَّى اللّهُ عَليهِ وسَلَّم .

قالَ أحمد : أحدَثَ ذلكَ حقًّا يا أَبي ؟

قالَ أبوه : نَعم يا أحمد ، فعِندما ذَهبَ النَّبـيُّ عَليـهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ مـرّةً إلى بَنـى النَّضـير ليَطلُـبَ منهـم المَعونَةَ ، اسْتِنادًا إلى العَهـدِ الَّـذى أخـذَهُ عَليهـم فـى أيّامِهِ الأُولَى بالمَدينَة ، أوعَزَت إليهم نُفوسُهم الغـادِرَةُ أن يَقتُلوه ، بأن يُلقوا عَليهِ حَجَرًا كَبيرًا من فوق بَيتٍ كان يَجلِسُ إلَى جوارِه ، لوْلا أن أَوحَى اللّهُ سُـبحانَهُ وتَعالَى إلى نَبيِّهِ بما يَنويهِ اليَهود ، فغادَرَ مجلِسَه .

وقالَت أُمُّه : وخَيبرُ أيْضًا ، ألم تَضَعْ لـه السُّـمَّ فـى لَحمِ الشّاة ؟

قالَ أبوه : وفِي غَزوَةِ الأَحزابِ أكبَرُ دَليلٍ على غَدرِهِم ونَقضِهِم العُهود .

سألَ أحمد : وماذا فعلَ اليَهودُ فى غَزوَةِ الأَحزابِ يا أبى ؟ ألم تَكُنْ غَزوَةُ الأَحزابِ بينَ قُرَيْشٍ وبينَ المُسلِمين ؟

قالَ أبوه : أوْعَزَ بعضُ سادَةِ اليَهودِ إلى قُرَيش ، أن يَخرُجوا لِقِتال مُحمَّد ، ووعَدوهُم أن يُعاوِنوهم فى قِتالِه ، كما انضَمَّ إليهم يَهودُ بَنى قُرَيْظَة ، جيرانُ النّبيِّ فى المَدينَة ، وفَتَحوا أبوابَ المَدينَةِ أمامَ المُغيرينَ المُعتَدين . ولكنَّ النَّصْرَ جاءَ من عندِ اللّه ، فهبَّت الرِّياحُ شَديدَةً اقْتَلعَتِ الخِيام ، وكفأَت أىْ قَلبَتِ القُدور ، فانصَرَف الأَحْزابُ عَنِ المَدينَةِ مَهزومين .

سألَ أحمد : وماذا فعلَ الرَّسولُ صلّى اللّهُ عَليهِ وسَلَّمَ ببَنى قُرَيْظَة ؟

قالَ أبوه : أوْكلَ النّبيُّ صلّى اللّهُ عَليهِ وسلَّمَ

الحُكمَ فى أمْرِهم ، إلى سَعدِ بنِ مُعاذٍ بناءً على اخْتِيارِهم إيّاه ، حيثُ كان حليفَهم قبل إسلامه .

سألَ أحمد : ومَن يكونُ سَعدُ بنُ مُعاذٍ يا أبى ؟

قالَ أبوه : سعدُ بنُ مُعاذٍ هو سَيِّدُ بَنى الأَشْهَل ، أعظَم بُطونِ الأَوْسِ وإمامُ الأنْصار ، أنشأَهُ أبوهُ علَى القُوَّةِ والشَّجاعَةِ والعَصبيَّةِ والخُلُقِ الحَميد ، أسلَم علَى يَدِ مُصْعَبِ بنِ عُمَيْر ، أوَّلِ سَفيرٍ للإسْلامِ فى المَدينَة ، فقد سَمِعَ سعْدُ بنُ مُعاذٍ بالوافِد القادِمِ مِن المدينَةِ ـ مُصْعَب بنُ عُمَير ـ يدْعو إلى دِينٍ جديد ، ونَبذَ عُبادَةِ الأصنامِ وبصِفَته سَيِّدَ الأَوس ، ذَهَب سَعْدٌ وصديقُهُ "أُسَيْدُ بنُ حُضَيْر" إلى بَيتِ أسعدَ بنِ زُرارَة ـ بنِ خالَة سَعْد ـ حَيْثُ يَنْزِلُ مُصْعَب .

ذَهبَ وفِى نيّتِه أنْ يدْفَع هَذا الغَريبَ خارِج حُدُودِ المَدينَة .

ولكن سَرتْ كَلِماتُ مُصعَبٍ فى نَفسِ سَعدٍ سَرَيانَ السِّحر ، فأذابَت العَصبيَّةَ القَبَلِيَّة ، وألانتِ

الحجَر ، وأعلنَ سعدُ بن مُعاذٍ إسْلامَهُ وسطَ دَهشةِ جَميعِ الحاضِرين . ونادَى فى قَومِهِ مُعلِنا عن إسْلامِه، فلم تَمضِ أيّامٌ على إسْلامِ سَعدِ بنِ مُعاذ ، إلاّ ولم يَبقَ بَيتٌ من بُيوتِ الأَوس ، إلاّ وفيهِ مُؤمِنٌ أو مُؤمِنَةٌ يُوحِّدُ اللّه..

وعندَما هاجَرَ الرَّسولُ إلى المَدينَة ، كانتْ بُيوتُ بَنى الأشْهَلِ قَبيلَةِ سَعدِ بنِ مُعاذ ، مُفتّحَةَ الأَبوابِ للمُهاجِرين ، وكانَت أموالُهم كُلُّها تحتَ تَصرُّفِهم .

وهنا قالَت الأُمّ : لا تَنسَ أن تَقصَّ على أَحمدَ مَوقفَ سعدِ بنِ مُعاذٍ يومَ غَزوةِ بَدر ، فقدْ أظْهَرَ إيمانًا وولاءً لا مَثيلَ لهما .

قالَ أبوه : أنتَ تَعلَمُ بالطَّبعِ يا أحْمَد ، ما حدثَ فى غَزوَةِ بَدْر ، والعيرَ الّتى هربَ بها أبو سُفْيان ، وخُروجَ قُرَيْشٍ لحَربِ المُسلِمين .

قالَ أحمد : نعمْ يا أَبى ، وأعلَمُ كذلِكَ أنَّ النَّبــىَّ لم يُرِد أن يَخرُجَ لقِتالِهم ، قبلَ أن يَستَشيرَ أصْحابَه .

قالَ أبوه : وكان المُهاجرونَ على أُهبَــةِ الاسْتِعدادِ للخُروج ، ولكنَّ النَّبىَّ صلَّى اللّهُ عَليهِ وسلَّم ، نظرَ إلى الأَنصارِ وقال : أشيروا علَىَّ أيُّها النّاس .

فنهضَ سعدُ بنُ مُعاذٍ وقال : يـا رَسـولَ اللّـهِ لقـد آمنَّا بك وصَدَّقنــاك ، وشـهدنا أنَّ مـا جئـتَ بـه هـو الحَقّ، وأعْطيناكَ على ذلك عُهودَنا ومواثيقَنا ، فامْضِ يا رَسولَ اللّهِ لما أرَدْتَ فنحنُ معك . ووَالّذى بعثَكَ بالحَقّ لو اسْتَعرضتَ بنا هذا البَحرَ فخُضتَه ، لخُضنــاهُ مَعك ، ما تَخلّف مِنّـا رجُلٌ واحِـد ، فسِـر بنـا على بَركَةِ اللّه .

وعِنـدَ بَـدء المَعرَكَـة ، أشـارَ سعدُ بـنُ مُعـاذٍ علَى الرَّسولِ صلَّى اللّهُ عَليهِ وسلَّم ، أن يُبنَـى لَـه عَريـشٌ

فى مَكانٍ مُرتَفِع ، ليُديرَ مِنه المَعرَكَة . ووقفَ على بابِ العَريشِ سَعدٌ وأبو بَكرٍ وصَفوَةُ المُهاجرينَ والأنْصار ، ليَحموا الرَّسولَ صلَّى اللّهُ عَليهِ وسلَّم .

وقالَت الأُمّ : وفى يَومِ أُحُد ، ألم يَكنْ دائِمًا إلى جانِبِ الرَّسولِ صلّى اللّهُ عَليهِ وسلَّم ، يُدافِعُ عَنهُ ويَحميهِ فى استِبْسالٍ وشَجاعَة ؟

قالَ الأب : وكذلِكَ فى يَومِ الخَندَق ، عِندما حاصرت قُرَيشٌ وغَطَفانُ المَدينَةَ بجَيشٍ عَرَمْرَم ، يُريدانِ الفَتكَ بالمُسلِمين ، فبَعثَ الرَّسولُ صلَّى اللّهُ عَليهِ وسلَّمَ سَعدَ بنَ مُعاذٍ سَيِّدَ الأوْس ، وسَعدَ بنَ عبادَةٍ سيِّدَ الخَزرَج ، إلى يَهودِ بَنى قُرَيْظَة ليتبَيّنوا مَوقِفَهُم مِنَ الغَزْو، فكانَ ردُّهم بكلِّ خُبثٍ ومَكرٍ ودَهاء : لَيسَ بَيننا وبَينَ مُحمَّدٍ عَقْدٌ ولا عَهْد .

قالَ أحمد : وهَكذا تَخلَّوا عن المُسلِمينَ فى أَشَدِّ

المَواقِفِ وأصْعَبِها .

قالَ الأب : وعزَّ علَى الرَّسولِ صلَّى اللّهُ عَليهِ وسلَّم ، ما تَتعَرَّضُ له المَدينَةُ من خَطَر ، فعَرضَ على بَني غَطَفانَ الانْسِحابَ مِنَ المَعرَكة ، مُقابِلَ نِصْفِ ثِمارِ المَدينَة ، وشاوَرَ النَّبيُّ سعدَ بنَ معاذٍ وسعدَ بن عبادَة السَّيِّدَيْن ، فهُما زَعيما المَدينة ، وصاحِبا الحقِّ في هذا الأَمر .

وعِندما عَلِمَ سَعدُ بنُ مُعاذٍ أنَّ ذلك العَرضَ لَيسَ بوحْيٍ منَ اللّهِ سُبحانَهُ ولِكنَّهُ اجْتِهادٌ من النَّبيِّ صلَّى اللّهُ عَليهِ وسلَّم ، لخَوفِهِ علَى المَدينَة ، قال : يا رَسولَ اللّه ، قد كُنّا نحنُ وهَؤلاء على الشِّركِ وعِبادَةِ الأَوثان ، لا نَعبُدُ اللّهَ ولا نَعرِفُه ، وهُم لا يَطمَعونَ أن يَأكلوا من مَدينَتِنا تَمْرا ، إلاّ كَرمًا أو ضِيافَةً أو بَيْعا . أوَبعدَ أن هَدانا اللّهُ للإسْلامِ نُعطيهُم أمْوالَنا ؟

واللهِ لا نُعطيهم إلاّ السَّيْف ، حتّى يَحكُمَ اللّهُ بَينَنا وبَينَهم.

ويأخُذُ النَّبيُّ صلَّى اللّهُ عَليهِ وسَلَّم برَأْيِ سَعدِ بنِ مُعاذ ، وتَكونُ الحَرب . ويبدأُ حِصارُ المَدينَة ، وكانَ سَعدٌ يَرتَدى دِرعًا قَصيرا يَبرُزُ مِنه ذِراعُه ، وتَدورُ المُناوَشاتُ حَولَ الخَندَق بينَ المُسلِمينَ والمُشركين . ويَتراشَقُ الفَريقان بالنّبال ، ويُصيبُ سَهمٌ ذِراعَ سَعدٍ فيَقطَعُ شُريانَها فينفَجرُ مِنه الدَّم ، فيأمُرُ النَّبيُّ صلَّى اللّهُ عَليهِ وسَلَّم ، أنْ يُحمَلَ إلى المَسجدِ ليَكونَ قَريبًا مِنهُ فى أثْناءِ تَمريضِه ، ويَظهَرُ حُبُّ سَعدٍ للجهاد، ولنُصرَةِ دينِ اللّه فيَقول : اللّهم إنْ كُنتَ أبْقَيتَ مِنْ حَربِ قُرَيشٍ شيئًا فأبْقِنى لَها ، فإنّه لا قَوْمٌ أحبَّ إلىّ أن أُجاهِدَهم مِن قَومٍ آذَوا رَسولَك وكذَّبوهُ وأَخرَجوه ، وإنْ كُنتَ قد وضَعتَ الحَربَ بَينَنا

،وبَينَهم فاجعل ما أصابَنى اليَومَ طَريقًا إلَى الشَّهادَة ، ولا تُمِتْنى حتَّى تقَرَّ عَينى من بَنى قُرَيْظَة .

قالَ أحمد : ألِهَذهِ الدَّرجةِ يا أَبى كانَ يَكـرَهُ يَهودَ بَنى قُرَيْظَة ؟

قالَ أَبوه : نَعم يا وَلدى ، فقـدْ خـانوا المُسلِمين ، وتَخلَّوا عَنهُم فى أَصْعَبِ المَواقِفِ وأشَدِّها خُطورَةً على الإِسْلام .

قالَ أحمد : وهلْ كانتْ إصابَتُهُ سَبَبًا فى مَوتِهِ يا أَبى؟

قالَ أَبوه : ماتَ سَعدُ بنُ مُعاذٍ مُتأثِّرًا بجراحِه ، بعدَ شَهرٍ من الآلامِ والمُعاناة ، ولكنَّه كانَ ـ كما سبقَ أن قُلنا ـ حَكَمًا على يَهودِ بَنى قُرَيْظَةَ قبلَ مَوتِه.

سألَ أحمد : وكيفَ كانَ ذلِكَ يا أَبى ؟

قالَ أَبوه : عندَما هبَّتِ الرِّياحُ فى غَزوَةِ الخَندق ،

أجْلَتْ قُرَيْشًا والْمُغيرينَ عن المَدينة ، نادَى النَّبىُّ صلَّى اللّهُ عَليهِ وسَلَّمَ فى أصْحابه وقال : (لا يُصَلِّيَنَّ أحدٌ العَصرَ إلاّ فى بَنى قُرَيْظَة) . وحاصرَ المُسلِمون بنى قُريظَةَ خَمسًا وعِشرينَ لَيلَة ، حتَّى تَعبوا مِن الحِصار، وقذفَ اللّهُ الرُّعبَ فى قُلوبِهم فاسْتَسلَموا ، ورَجَوا أن يُحكِّمَ الرَّسولُ صلّى اللّهُ عَليهِ وسَلَّمَ فيهم ، سَعْدَ بنَ مُعاذٍ ، وكانَ حَليفَهُم فى الجاهِلِيَّة . وأرسَلَ الرَّسولُ صلّى اللّهُ عَليهِ وسَلَّمَ إلى سَعد ، وجِىء بهِ وقد أَعْيَتهُ إصابَتهُ وأنْهَكَتْه ، فشَفَى غَليلَهُ مِنَ اليَهودِ فقال : أَرى أَنْ يُقتَلَ مُقاتِلوهم ، وتُسبىَ ذَراريهم وتُقَسَّم أمْوالُهم .

وعَلَّقَ النَّبىُّ صلَّى اللّهُ عَليهِ وسَلَّم على حُكمِه ، فقال : قَضيْتَ بِحُكمِ اللّه .

ويَزورُهُ النّبيُّ في لَحَظاتِهِ الأَخيرَة ، فيدعو له ويَقول: (اللّهم إنَّ سَعدًا قد جاهَدَ في سَبيلِك ، وصَدَّقَ رَسولَك ، وقَضى الّذي قَضيْتَ عليه ، فتقبَّلْ روحَه بخَيرِ ما تُقُبِّلَت روح) .

ولقِيَ الفَتى ربَّه مُتَهلّلا مُسْتَبشِرا ، لاحِقًا بمَن سَبَقوه من المُسلِمينَ الأوائل ، فلَيسَ يُقاسُ عُمرُ المَرءِ بعَددِ السَّنوات الّتى قَضاها فى الحَياة ، ولكنْ بما قدَّمَهُ فى خِلالِ تِلكَ السَّنوات .

قالَ أحمدَ : كم كانَ عُمرُ سَعدِ بنِ مُعاذٍ عندَما ماتَ يا أبى ؟

قالَ أبوه : كانَ فى السّابعَةِ والثّلاثينَ من عُمرِه ، وقدْ أمْضَى منها فى الإسْلامِ سِتَّ سَنَواتٍ فَقَط ، ولكِنّه أَنجَزَ خِلالَها الكَثير ، حتّى إنّه كان بينَ الأنْصارِ بمَنزِلَةِ أَبى بَكرٍ الصِّديقِ بينَ المُهاجِرين .

وعندَ مَوتِ سَعدِ بنِ مُعاذ ، يَأتى جِبريلُ عَليهِ السَّلامِ ويُحدِّثُ الرَّسولَ صلَّى اللّهُ عَليهِ وسَلَّم عَنِ الشَّخصِ الّذى مات ، فيَقول : لقد اهتَزَّ عَرشُ الرَّحمنِ بموتِه .